سبهان آدم يرسم شخوص ما بعد الحداثة:

أساطيـر تنبثق مـــن الموت والعمـاء

ندي الوزة *

■ لا تني أعمال سبهان آدم منذ ظهورها على سطح المشهد الثقافي تقلق ممتهني الفن و عارفيه، تدهشهم حيناً، و توقعهم في الحيرة أحياناً، دهشة أو حيرة من يرى شيئاً و لا يستطيع تفسير مكوناته و أبعاده، فقط، لأنه غير متضمن في الكتب الأكاديمية أو في منظوماتها المتعارف عليها. بما يجعل الحاجة دائمة الى قراءات متلاحقة لهذه الأعمال، ترصد كشوفاتها وتطوراتها: أولاً لأنها لا ترتكز الى أية مرجعية تحاول استكمالها أو رأب نواقصها.

وثانياً لأنها نتاج أصيل يعيد للفن اعتباره بما هو رؤية فردية، وجهد دؤوب ومتواصل لاستخلاص الألوان والخطوط والمساحات وبالنتيجة التعابير.

وفي الحقيقة لقد أتاحت هذه الأعمال مداخل عدة للقراءة توقفت مطولاً في فضاءات أفكارها الأدبية بتأويل رؤاها من غير أن توضح مكامن القوة والاستمرار فيها بما هي أعمال فنية قبل كل شيء. ولأنها كذلك، كان من المفترض أن تستوجب قراءةً علميةً ودقيقة تستطيع أن تكشف الرؤية الأساسية التي تنتجها. وهي، كما أستقرئ وألاحظ، رؤية تكوينية بطبيعتها التشكيلية لألوانها وأشكالها. ولأنها كذلك، سوف تحيل، بمحمولها الحضاري هذا الى الثقافة العريقة الممتدة شرق البحر الأبيض المتوسط، مبرزةً رؤية هذه الثقافة التكوينية للعالم ومخلوقاته، بما يعيد للوجود طزاجة الفكر الأسطوري ووعيه للكون حين يرى الحياة والمعرفة والفن رؤيةً واحدة، لا تكتشف في صفحات التاريخ وآثاره بقدر ما تحضر مباشرةً في لوحات هذا الفنان وشخوصه. وهي بذلك لا تحاكي الأساطير القديمة في أسفارها ورسوماتها بقدر ما تبدع أساطيرها الجديدة بعيداً عن أساطير الصياد أو المزارع. وهي ان فعلت، وتمثلت هذا المخزون الحضاري في ذاكرة الفنان أو لا وعيه الجمعي بما هو طاقة هائلة تقطرت عبر آلاف السنين لتندفع «كانفجار في الأحشاء التي تكون تاريخ الفن العربي» وتفصح عن أصواته المقموعة، وتصبح «ترجمان شفويته» الحرة، مثلما يرى أدونيس، غير أن هذه الشفوية ينبغي ألا تبنى على ما هو متداول ومشاع حتى في تاريخ الفن درءاً للمشابهات المغرضة على الأقل، فأن يرسم انسان الصياد على جدران كهوفه رجالاً بأقنعة حيوانات فانما لحاجة عملية معاشة، وكذلك الأمر في الرؤوس الطوطمية في افريقيا وغيرها، بينما عمل سبهان يتطلب رؤيةً أخرى حتى في معيار الشفوية، رؤية تنظر الى تركيب هذه الأعمال بمزجه لعناصر جمالية ونفسية واجتماعية متواشجة في لوحة، هي رسمت، لترى بحساسية رهيفة، بل وبمقدرة معرفية عالية، تستطيع أن تتذوق هذه الشفوية باعتبارها معنىً حسياً، لا يدرك بالحواس، أو الغريزة الفطرية، بل بما يوفر التقاطاً حدسياً لكل ذلك معاً.

وقد يتبدى هذا المزج، برؤية تفكيكية، اثنياً، جامعاً لتناقضات تكوينية، ترى في الكائن طينةً ملائكيةً شيطانية، آدمية جنية، أو انسية حيوانية، جبلت بمزاج عابث كما يفعل بعض السرياليين. وقد يكون ذلك من حيث الشكل لولا أن سبهان يصدر عن مزاج أعمق وأرقى لا تبدو فيه كائناته مرايا لنوازع خلقية طالما أنها تتمثل بتعابيرها العريضة أزمات وجودية ملحة للانسان الحديث، يبيحها القول الأسطوري باعتباره قولاً كونياً بامتياز.

وهي بذلك تفارق الرؤية السريالية:

أولاً بأنها أعمال واعية، تصدر عن العقل، أي مفكر فيها.

ثانياً بأنها نتاج جهد، وحرفية، ومهارة.

ثالثاً بأنها كائنات عضوية، وان كانت غير مطابقة لما هو في الواقع، ولا تحاول تحويره أو تحوير كائناته عبر الانزياح أو الالصاق أو الأفكار الطريفة.

رابعاً بأنها ذات دلالات واضحة بما يجعلها أقرب الى التعبيرية وان كانت لا تقصد أن تنهج سبلها التقنية أو الجمالية.

وهي بعد ذلك ترفض أية أصول أو سلالات برفضها لأية محاولة انعكاس أو محاكاة. حتى أنها ببعدها الأنطولوجي تبدو مناوئة لانزياحات الحداثة قاطبة، رافضةً أي اعتراف بمرجع أو أبوة ولا سيما ما يتعلق بما هو فني أو تقني منها.

هذا الحراك بين الأسطورة والحداثة يحيل الى مقاربة، ربما تكون دقيقةً فكرياً من خلال تقدير عمل سبهان آدم على أنه منظومة لغوية مبتكرة، تذكر باللغة الهيروغلوفية، لكنها تفارقها بكون الهيروغلوفية حروفاً وان كانت مشخصة، بينما عمل سبهان هو في كينونته رسماً ولوحة، وهو بذلك ربما يكون مستخلصاً من العالم على شكل مجموعة من الرموز والدلالات لكنها أبعد ما تكون عن التجريد، وأقرب ما تكون الى الاستعارات الانزياحية الكاملة ولكن المبتكرة بالمعنى الفني وليس الشعري وفقاً لرؤية جان كوهين، ولا سيما حين وقعنتها لكن خارج قوانين الواقع الموضوعي ومنظوراته السطحية أو الجوهرية.

هذه الوقعنة ربما هي ما دفعت هذا الفنان ليقيم، من أجل تأسيس اللوحة ومزج الألوان، مختبراً خاصاً سوف يقضي فيه سنوات من التجربة والمحاولة، حتى تبدو رؤيته التكوينية من الحدة بحيث لا تحتمل أي خلل. انه يعرف أنه بدأ من اللاشيء مشروعاً يجب أنْ يمضي به الى نهايته. وانما معاناته الأصلية كانت في التعامل مع مواد مختبره للتوصل الى لوحة متينة، تقاوم الزمن والاحتكاك ليس كمادة من النَسيج وَالألوان وضع فيها أسراره التأسيسية بعد تجريب مضنٍ ومدهش وحسب، بل وكتآلف بين هذهْ المادةَ ومحمولاتها الفنية الأخرى. حتّى أن الخبراء سوف يحتاجون وقتاً طويلاً من المعاينة ليكتشفوا أسرار سبهان ـ هذا اذا قدروا ـ لسبب بسيط هو أنها أنتجت في مختبره الشخصي هذا، دون العودة الى أي مرجع أكاديمي أو العودة الى أي فنان آخر.

وهذا يعني أن تأسيساته وألوانه لا تعتمد على مواد جاهزة أو على معادلات مزجية مختبرة من قبل، لكن ووفقاً لرؤيته التكوينية سوف تنأى عن أية ألوان أصلية واضحة أو متقابلة طالما أن شخوصه تخرج من الظل ولا توجده، بما يعني تمركزاً للون الأسود وسط خلفيات جدارية حمراء، ترابية، وسوداء أيضاً لتخرج الشخوص والأشياء بما يشبه الانبثاق من العماء وربما العودة من الموت وأله. وغالباً ما تأتي الألوان الأخرى على شكل منمنمات ساخرة أو شروحات تعبيرية أو للتخفيف من قسوة هذا اللون المعتم وطغيانه، حتى يتراجع في بعض اللوحات ويتقلص الى ملامح رئيسة، لتبرز مهارة سبهان في استنطاق الألوان جميعها، فتبدي طبيعةً أخرى لا تتآلف وتنسجم الا في لوحته وحدها حتى يمكن تلمس برودةً من الألوان الساخنة وتلمس سخونةً من الألوان الباردة، كما يرى في تقابل الألوان التفصيلية مع الخلفيات الكبيرة للأزرق والأحمر والبني. ثم يبرز الأخضر على شكل أشواك في حوار ألوان غير مرئي في أي عمل آخر، هذا الحوار سيتكرر في بعض اللوحات بمهرجان من الألوان ترتديه الشخوص بما يناسب حشدها وانفعالاتها. لكن ما هو أساسي وبارز في لوحاته الأخيرة هو ما ينتجه توضع الألوان وتمازجها من سطوح تكاد تلمسها العين من شدة حساسيتهما، هذا يحدث حتى في تجاور اللونين الأسود والأبيض (أو الفضي) وتمازجهما لتشكيل قميص أو غطاء أو عباءة.

لكن، وعلى الرغم من أهمية الألوان في أعمال سبهان آدم وجاذبيتها البصرية والتعبيرية، الا أن الخطوط هي من تشكل المرتكز الأساس لشخوصه. انها الحيوية القادمة لمواجهة المطابقة الكاملة أو الناقصة للصورة الفوتوغرافية وجمودها، بما يعيد للأذهان الثورات الانزياحية الكبرى للحداثة وصعوبة فكاكها من الواقع الموضوعي وأبعاده المختلفة. لذلك، أو للتخلص كلياً من هذا الواقع من أجل تكوين واقع آخر غير مرئي في الطبيعة، يبتكر سبهان آلية جديدة للخطوط وعملها، تعتمد أساساً على الخطوط القصيرة والمتوسطة لتكوين الحجوم والسطوح وأشكالهما، بينما تبقى الخطوط الطويلة مضمرة لتمنح الشخوص والأشياء قوامها وتوازنها داخل اللوحة. أما هذه الآلية فتقوم على عملية التجاور والتراكم للخطوط السوداء غالباً، مشكلة مساحات وكتل دقيقة تكبر أو تصغر تبعاً للشيء المراد ابرازه: شعر، عضلات، ملامح أعضاء....الى آخره، غير أن عملها يرتكز أساساً في ابراز شكل الوجه وتعابيره المؤلمة والقاسية حتى أنها من شدة ألمها وقسوتها تسيل لتبكي.

أما ما يدعو للتساؤل والدهشة حقاً فهو أن تقنية هذه الخطوط في حين تبدي مهارةً واضحةً في توضعها على أي شكل كان، توضح، حساسية رائعة في تكوين أجساد وشعور ورياش، صحيح أنها لا تشبه أياً من الأجساد أو الشعور أو الرياش الحية، الا أنها تكاد تكون حقيقيةً فعلاً بحساسيتها الفريدة هذه، وهي كذلك تماماً في كونها كائنات تعيش على هيئة رسوم عالمها الأنسجة والأوراق. وهي بذلك تعيد الاعتبار الكلاسيكي للخطوط والألوان كقيمة جمالية عريقة، ها هي تتمرد في لوحات سبهان حتى على المعايير الكلاسيكية والحديثة، لتؤكد أصالتها الفذة في تاريخ الفن، في وقت تكاد تتلاشى فيه أية قيم أصيلة للفن وتاريخه.

سوف تتأكد أصالة هذه الخطوط والألوان حين تكوينها أو ولادتها ـ كما يوحي سيلانها أحياناً ـ للكائنات والشخوص الغريبة في ملامحها، لكن الأليفة في تمثلها للوجع الانساني وقلقه الوجودي. ما هو خطر أكثر هو القيمة التشخيصية لكائنات سبهان آدم حتى يكاد بناؤها العضوي واقناعه للعين يبعدها عن أية طرافة محتملة، لكن ما يجعلها أكثر خطورةً باعتبارها فناً هو توازنها الدقيق داخل اللوحة، توازن مبني على رؤية فطرية للعين المجردة، بلا حسابات ولا مناظير سوى حسابات الخبرة وتراكمها، بما يجعلها، وعلى الرغم من عشوائية الخطوط وعبثية الألوان المتبدية للوهلة الأولى، تعاود تشكيل ذاتها داخل العين بقوة وتماسك يجعلانها تنهار عند أية محاولة للاضافة أو النقصان ومهما كانت ضئيلة.

هذه الرؤية الفطرية ربما أعادت القول الى أساطير شرق المتوسط الغابرة وبراءتها التكوينية في فهم الوجود والعالم غير أن أساطير هذا الفنان تشي بما يقوض هذا الوجود وهذا العالم. انها ترسم كائنات مفزعة في كينونتها البيولوجية

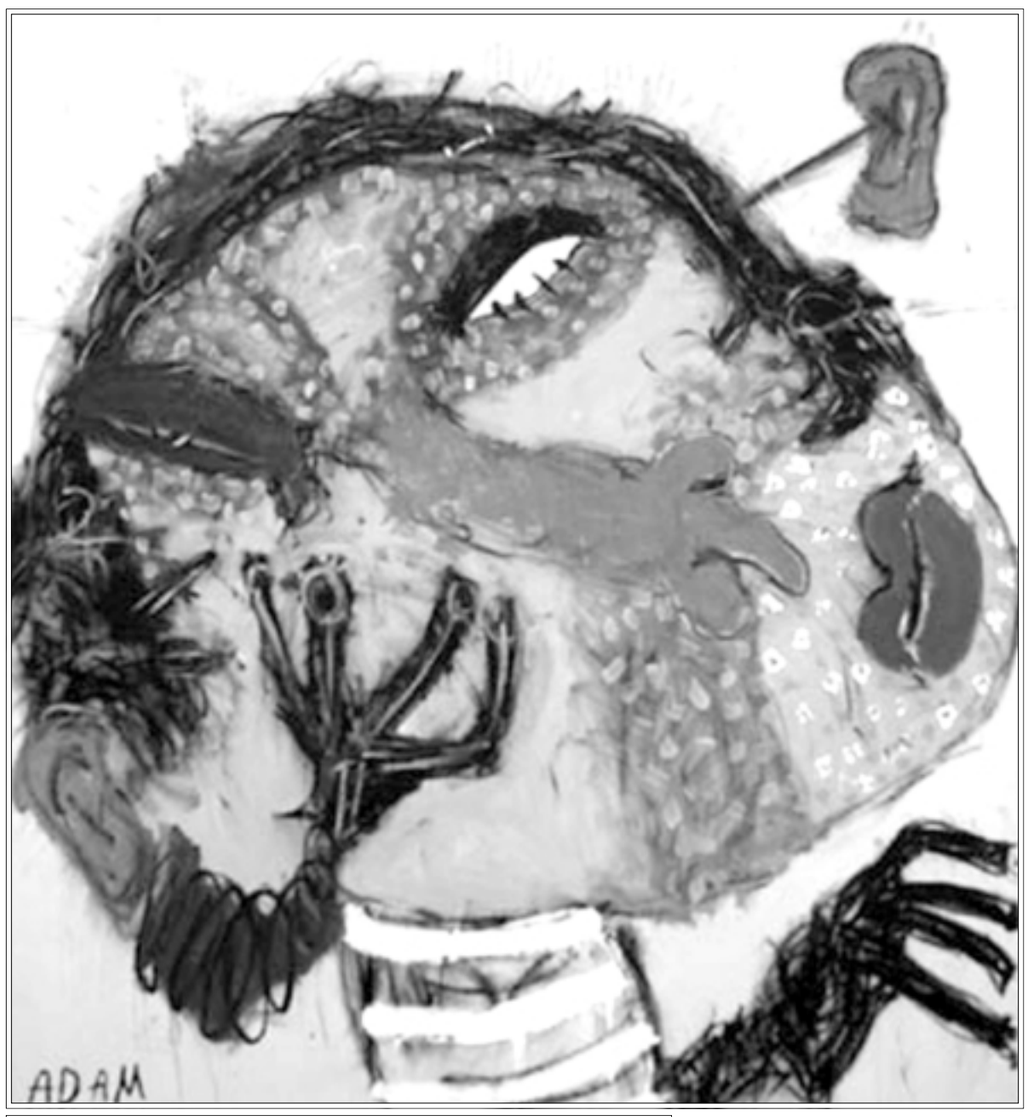

من اعمال الفنان سبهان ادم (القدس العربي)

لتنذر بخطر داهم هو خطر سبهان على أية حال.

سيرة موجزة:

ولد سبهان حسين محمد في مدينة الحسكة ـ سورية، يوم 1972/1/19 لدى أسرة متواضعة، اقتصادياً وثقافياً. غادر المدرسة مبكراً، وهو في الخامسة عشرة من عمره، كيلا يتلقى، من بعد، أي تعليم جامعي، أو فني مهما كان متواضعاً. كان يعتبر مغادرته للمدرسة مغامرة لا بد منها، اختصاراً للوقت، طالما أنه يستطيع التواصل مع كبار شعراء الحداثة العربية وأشدهم اختزالاً، فكان من المرجح له أن يكون شاعراً لولا أن نسخة من أعمال الشاعر الفرنسي ايف بونفوا مترجمة، من قبل أدونيس، وقعت بين يديه، فأصابته بالهلع كما يقول، فتوقف عن كتابة الشعر لأنه وجد نفسه مهزوماً لأن ثمة من كتب شعرا أراد أن يكتبه بنفسه، ولم يعد يعرف ماذا يفعل؟

لكن لا أدري كيف حصل وفكر أن يشتري ورقاً وألواناً ليبدأ مغامرته الثانية والأساسية التي غيرت مجرى حياته، ليصبح رساماً بين ليلة وضحاها وسط دهشة أصحابه من الشعراء والصحافيين ودهشته أيضاً. ولم يكن مدير المركز الثقافي العربي في الحسكة خارج ذلك، لكنه وافق أن يعرض رسومات سبهان الأولى.

من أجل ذلك العرض وزع سبهان بياناً سريالياً وضع عليه صورته. ويقول ان مدير المركز كتب كلاماً جيداً. وكذلك كان رئيس قسم الفنون في جامعة فالنسيا متواجداً بالمصادفة في مدينة الحسكة، وحضر المعرض ليكتب عنه كلاماً قوياً. كما كان سبهان، حينها، يشرح أعماله للجمهور بجمل ثقافية قوية التعبير، استناداً الى معرفته الشعرية وليس الى معرفته الفنية. وعلى كل يقول سبهان: «كان هذا المعرض الأول ممتعاً حقاً».

بعد ذلك اتجه سبهان كلية الى العمل الفني واحترافه. وانسجاماً مع رؤيته التكوينية، ولأنه يريد أن يكون فناناً عالمياً كما باح لمدير المركز الثقافي الفرنسي بدمشق، ولم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين عاماً، أخذ يوقع أعماله باسم جديد هو: سبهان آدم.

ثم تتالت معارضه بعد ذلك ليترسخ نجاحه، ويكبر. فيقيم أكثر من ثلاثين معرضاً فردياً في أقل من عشر سنوات، في كل من دمشق، بيروت، عمان، القاهرة، تونس، باريس، برشلونة، روما، اضافة الى مدن أوروبية تم الاتفاق بشأن العرض فيها، وكانت رسوماته قد وصلت الى مدن كثيرة منها الكويت ونيويورك بعد أن اقتنيت في مؤسسات دولية ومتاحف أوروبية عديدة.

وها هي المجلات الفنية المختصة تشيد بعمله طالما أن أسهمه تتصاعد في الأوساط التشكيلية العالمية وطالما أن مقتني اللوحات من كافة الأمم والأجناس يتهافتون على شرائها. وقد أرفقت منظمة اليونسكو رسوماته بقصائد للشاعر اليمني الكبير عبدالله البردوني من خلال «كتاب في جريدة» الذي يوزع في جميع العواصم العربية. كما أرفقت مؤخراً صحيفة لوموند ديبلوماتيك رسومات سبهان في ملحقها الشهري، فضلاً عن أن بعض رسوماته شغلت عدداً من أغلفة المجلات الفرنسية وغيرها.

ما ينتظره سبهان حالياً هو كتاب ضخم سيطبع في عام 2006 لدى دار نشر Fragment Editions في باريس.

* شاعر من سورية

تداعيات

رحلة الباهي نحو القمر ومطالع النجوم

عبدالله حرمة الله*

■ فوق نيران القش التي تتشنج فيها الحضارات
وراء اختلاط اللغات والأخلاق
أنا أبصر الإنسان، أبصر ما يستمر منه صامدا
لايتزحزح في قلب الإعصار.
لقد تملص من إمرة الممكنات في الزمان والمكان
فهو في الواقع محور هذا الإعصار بالذات
إنه الوسيط الذي لا وسيط إلاه
(آندريه بريتون/ قيمة الإنسان)

لأول مرة تحط رحالي بأرض ابن بطوطة، فيزدحم الإعتزاز بالغبطة، ليتجدد عشقي لها ولأهلها الطيبين.

بعيدا عن سياحة الفكر الرائجة في وطننا العربي المنهمك في «هامبركره الثقافي»، أصبح المغرب من ضمن المحطات الثقافية التي تفرض نفسها بنعومة فائقة على كل المشتغلين بالحرف، منذ أن فقد جزءا من دلاله بشامنا المبلقن!

تكرم الإخوة بدعوتي للمشاركة في التغطية الاعلامية لهذه التظاهرة الباهية، لكنني بعد إذنهم أود اسماع الحضورصدى زغردة مبحوحة، كانت قد آوتها أمواج نهر السنغال، في تثائبه الأبدي، قبل الإلتحاق بالمحيط الأطلسي، الحارس الحميم لقلاع الصحراء، بخريفها الشعري، ووبرها النحوي...

عرجت بانواكشوط، راكضا خلف رائحة ذلك الملاك، الذي عبر النهر ذات يوم، آملا العودة بمعول يهدم تفاصيل الحدود! من بين الذين عرفوه، كانت أخته في الانتظار، ومن بهرهم ذكاؤه من شيوخ الحي... لأجد نفسي محرجا بالحديث عن تأبين من ما زالوا يعتبرونه حيا؛ ربما في طريق العودة، بعد أن تعبت حقائبه من ملاحقة الحلم المغاربي، الذي كان قد جعله نبراس صعلكته السياسية. ولأن الدموع أدلقت المداد؛ أحجمت عن تدوين، قد يعصف بما تبقى من أمل «تمبيعل»، في احتضان ابنها ذات يوم، ربما العام المقبل، إن قبل المنظمون، عل عزة، التي طالما أبكت ذكراها الفقيد بسهراته الباريسية، تجد عزاءها عبر ما زرع الفقيد من حب حوله طيلة مقامه القصير، بهذه الحياة التي أحبها حتى الفراق!

لم يسبق لي أن قابلته، لكني سأحاول تصوره، كي تتمكن مخيلتي اخراجه من عتمة رسائله الباريسية: أسمر، بهندام سريالي، ونظرة تضحك بصفاء لافت، قواطع تبارز كوثر حياته الدافقة..يحتضن شعره الكث ما بين كفيه، ويصيح، بعد أن أبدعت قهقهته سمفونية الرعود الماردة، مستحضرا رثاء مالك بن الريب لنفسه: وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت××× سريعا لدى الهيجا إلى من دعانيا. أتصوره كذلك خارجا من مطبخ أحد أصدقائه، وجبينه يتصبب عرقا، بعد أن أعد أشهى كسكس ذاقته العرب، متأبطا «رسالة من باريس»، كانت أنامله قد رسمتها أثناء تقطيع البصل... وفي رد مقتضب على بعض المتحمسين للمكاتب الفخمة:مع حرقة الحنين؛

جاء زائر الجليد!
وصاح مدافع عن الجلاد من بعيد!
والذنب دائما حريق التنديد.
أمام صمت الرفاق وشفاية الخصوم
تأخذ لباقتي طعم الضريم

اباه أو الباهي، كان ثائرا رزينا، تجاوز بنضاله حدود الإنتماء الضيق، ليتربع على عرش القضايا العادلة لأمة بأكملها، فرسم خطاه ما زال ببيروت، الجزائر، انواكشوط، دكار، باريس، وأخيرا المغرب، حيث اختار مثواه.

أما خيار «الحداثة وانعتاق الإنسان» كموضوع لهذه التظاهرة، فهو أصدق تعبير عن حياة الباهي، وأظنه اليوم فخورا، بتناول مروره بيننا من هذه الزاوية، فهو الذي أحب الحياة، مدحرجا من على جبال الركود حجار الذوق المتميز، مؤمنا بكرامة الإنسان، التي تتجاوز ضوابط التنزيل، وحيثيات النسق الاجتماعي...

قبل أن أتوجه إلى الفقيد عبر مستجدات قد يهمه استيعابنا لها، أود التوقف عند بعض المحطات في حياته، والتي تبين مدى تميزه عن جيل بأكمله. فحتمية «استنساخ» النخب، كانت تريد من الباهي بعد أن حفظ القرآن، وتفقه في علومه، أن يعبر النهر بعمامته ومسبحته، ليشرع في تقسيط حصته الوافرة من أسرار الحرف، بنسق رحلة الشتاء والصيف، ليعود مثقلا بالهدايا، من قطيع وجوار، لكن تعلق الطفل الذي كان بالقمر ومطالع النجوم، جعل مروره بالسنغال، مفتاحا لتعطشه المعرفي، حيث التهم القاموس، ليعيد ترتيبه لاحقا ببارييس، عندما التحق بجيل متميز من ناحية الوعي السياسي والذوق الأدبي.إن ولعه، بالقمر، قمر الطفولة، جعل منه إنسانا، محكم القناعة، واضح الرؤية، سليم الموقف، من خلال سجيته الأولى: فوفاؤه لقناعاته ومن جسدها حوله من رجال، كانا كافيين، ليتحدد من سرب النميمة والبيرة!

كذلك علاقته بالحياة، التي اعتبرها لأكثر من سبب، فضيحة، يتحكم فيها بشر وهبوا الذكاء، فعافوا الوفاء. بعد هذه الخيبة الداحرة، لجأ بروافة إلى الأدب، مع قناعته بقدرته على إعطاء أجمل إطار لنقل الأمور إلى الآخرين، مع تصور حتمي للزمن، لكن شرارة النضال، حجبت عنه الحقيقة السرمدية للزمن الآفل، فاختفت أعماله من مكتباتنا، ليتجرع الإبداع خيبة ثانية!

ولو أن حتمية الوفاء كما عاشها تقتضي، أن نكتب، عن حياته التي أضفت إلى الأدب، متسعا حداثيا، مع إقرار رومانسي للقيمة الحقيقية للإنسان، تماما كما فعل منيف، الذي لحق به، بعد تريث أهدانا «عروة الزمان الباهي» حيث وفق في تلخيص حياته قبل أن يفارقه، بمرارة توحي إلى القيمة الحقيقية للإنسان الذي كان، إذ يصفه بدقة حوت البورتري الجميل لمن، رفض ذات يوم أن يكون «خادما لأفرانكو»، حيث قال: «إن الطيور المهاجرة لا تطيل إقامتها إلا في مواطنها، لكنها، مع ذلك، تترك آثارا حافلة في أماكن عبورها... بحيث يتذكرها الكثيرون ما إن يعبر طائر أو تخفق نسمة»، تلكم كانت زيارته العابرة للحياة، بعد أن وفق، من بين أمور أخرى، في تعريف المشارقة، بالمغرب العربي، الذي كان بالنسبة لهم مجرد أدغال للإستعمار، بها ينمو السابين، وتنطق محرفة لغة موليير!بعد عقود البارود انطفأ في عتمة الشموع بالقدس الحزينة.

ياطفل لعكل وبطل الساقية
اليوم تتوقف أنفاس العالم العربي، بذكرى رحيل من كان عاشقه الأول، وباريس الحميمة تذرف دمعة حزينة على من احتضنها في قلبه، بعد أن تبنته، وسلمته مفاتيح غوايتها، ودهاليز سريتها، لأنها فهمت أن اليسار العربي والعالمي من بعده، سيقطع خطوات حثيثة مع من عزز الممارسة السياسية، بجرعة أخلاقية، أعادت إليها هيبتها، والمشتغلين بها، تقديرا توارثته الأجيال من بعده.

اليوم بعد رحيل الرفيق، أشم رائحته، هنا، أحسها عبر الوفاء، الذي جسدته مدارس اليسار المغربي، والتي نهل منها جيل بأكمله، طيلة المسار العصامي لهذه الأسرة الكبيرة، من الرفض إلى المشاركة، لذا يستوجب المقام رفع التحية لمن حملوا مشعل هذه التجربة، والتي أصبحت ملكا لكل الشباب المغاربي الطامح إلى انتزاع حقوقه بلغة حضارية، أمامكم أنحني إجلالا لهذا الجيل الذي تعلمت منه الكثير، وباسم رفاقي هناك، بمدرجات الجامعة والزنزانات أشكر حلقة أصدقاء الباهي، وأزف إليه بشرى دخول رفاقه الموريتانيين في المشاركة الفعالة في دمقرطة البلاد عبر مرحلة انتقالية فتحت الأبواب أمام كل الشركاء السياسيين والاجتماعيين.

عزيز الرفاق، بعدك سقطت بغداد، وديس كراس المتنبي، لنتجرع موت الشعر وانحناء النخيل، رحل عرفات، هناك بباريس، التي بدأت تضيق بنا بعدك، فحيها اللاتيني لم يعد كما عهدته، لقد هجرته المكتبات التي غذتك، ليكتسحه بعض المعجبين بملابسهم الداخلية من أثرياء الصور الرقمية.بموريتانيا، تساقطت الزخات الأولى، معلنة عن بداية خريف قد يسر القطيع وملاكه، خصوصا في معمعان الإحتفاء برحيل ذلك الذي عبث بها طيلة عقدين، بعد أن نهب ثرواتها، ليهمل جيرانها المقربين!

بمد متعال نحو الأفق، يتدفق السيل الأصفر، على نقيع السكر و النعناع، لتسموا رغوة أنيقة، تحز بلطافة شهية بين الكأس والإبريق.. ساعتها تدور الكؤوس، واهية بسخاء الشاي المنعنع، معلنة بداية حياة في حضن «البيظان»، لتلحق تفاصيل الحشمة وزغاريد الأفراح. هكذا كنت، ومن بعدك مازال الكثير من الحضور لذا أقترح أن نشرب شايا بجيماته الثلاث*، عل ضحكتك الباسمة تأنسنا في هذا السمر الأندلسي كما أحببت مرة أخرى.

* صحافي وكاتب موريتاني

* حسب الأسطورة الشعبية تكتمل جلسة الشاي لدى البيظان بعد استيفاء ثلاث جيمات: الجمر، الجماعة، الجر

المونديال

صباح زوين*

■ كل اربع سنوات يعود العيد اليّ، واعتبر المونديال عيداً جميلاً يدوم شهراً كاملاً اشعر خلاله اني في نزهة طويلة او في رحلة استجمام او في سفرة سياحية حيث الوجوه الكثيرة والهيصة والحماس والشوق والاندفاع وحبس الانفاس امام الشاشة الصغيرة في البيت، والكبيرة (للمناسبة الخاصة هذه) في المطاعم. كل اربع سنوات يعود هذا العيد العالمي الملوّن والمسالم وتعود في كل مرة تمتلئ شوارع بيروت بالاعلام من كل لون وشكل وصوب.

اعلام الانتماءات الشتى، فاللبناني يختار الفريق العالمي الذي يحبّه كونه لم يحظ حتى الان بفريق وطني. فأمرّ كل يوم في سيارتي عبر الشوارع المختلفة واراى الاعلام ترفرف إمّا على الارصفة او على الشرفات او من خلال نوافذ السيارات وهذا العلم لإسبانيا وذلك لسويسرا وآخر لألمانيا ورابع لإيطاليا وخامس للسويد ولا ننسَ طبعاً البرازيل والارجنتين وألمانيا والى آخره. ألوان جميلة فرحة مشكّلة تجعلني اشعر وكأن الأمم كلها في لبنان. لكن اللافت في هذا الاحتفال اللبناني للرايات الدولية، هو الميل العنصري لدى كل واحد فينا. فغالباً ما يفضّل اللبناني الفريق الالماني او السويدي او السويسري او الايطالي او الفرنسي على الافرقة الافريقية السوداء!

ومهما عظم شأن اللاعبين الزنوج فأنا اكيدة ان اللبناني سيظل يختار الرايات الاوروبية، لا بل الغربية منها بشكل خاص، وذلك لأسباب سياسية تكنولوجية اقتصادية: فيعرف اللبناني ان ألمانيا متفوقة اقتصادياً وعلمياً على مولدافيا مثلاً. وان السويد في هذه النواحي اهم من لاتفيا وما شابهها من بلدان اوروبا الشرقية وصولاً الى روسيا.

اما البرازيل فلها اسطورتها الخاصة بفضل بيليه ولهو من النافل خوض موضوع هذا البلد الشاسع بما يمثله من اهمية على صعيد كرة القدم.

وماذا اقول عن الارجنتين، هذه الارجنتين التي يربطني بها رابط عضوي، هذا البلد العريق في كرة القدم ايضاً كما في مجالات رياضية اخرى كسباق السيارات وكرة المضرب والخ. كم افرح عندما ترفرف اعلام الارجنتين في مدينة بيروت، في زواياها وعلى مدخل دكاكينها وعلى شرفات بيوتها او على اسطح سياراتها. مررت قبل يومين في شارع الحمرا ورأيتُ سيارة راكنة على احد الارصفة ومن شبابيكها يرفّ علمان للأرجنتين وعلى الزجاج الجانبي ألصق صاحبها بوستراً كبيراً لفريق الارجنتين 2006! توقفت ولم أتوانَ عن التوقّف، لأرى اولاً الشمس الذهبية المرسومة في الوسط بين ازرقَي العلم، وثانياً لأنظر الى كل لاعب من لاعبي هذا الفريق! اني مع الارجنتين واحبّ كل من يحمّس فريقها. قبل سنوات، عندما خسرت الارجنتين، بكيتُ بكاء حاراً وكأني طُردتُ من جنّة عشيقي. وفي الثمانينات، عندما ربحت، لم تعد تتسع لي الدنيا.

اما قبل الثمانينات فلم اذكر شيئاً اذ لم أكن افهم ما هو المونديال، لا بل لم اكن اعلم انه موجود. كل ما اذكر هو انه سنة 1978، قال والدي لوالدتي مادحاً اياها من خلال مدحه فريق الارجنتين «ما اطولهم وما احلى اجسامهم انها اجسام امريكية!».

اليوم، لو كان لا يزال على قيد الحياة، لكنت قلت له، صحيح انها اجسام امريكية، والقارة الأمريكية تنمو فيها الاجساد الجميلة. فالمكان يغيّر اشياء كثيرة وهو المؤثر الاكبر في طبيعة لغتنا وكتابتنا وطريقة عيشنا ونمو جسمنا. الا ان اليوم بدأ فريق الارجنتين يختلط، وبدأ يدخل اليه عناصر من الشعب المحلي الاصلي، وكان اولهم مارادونا، الا انه، على الرغم من هذا الاختلاط الخفيف، لا يزال فريقاً مكوّناً من العرق الابيض، اي الارجنتيني ذي الاصول الاوروبية إذ أن هذا البلد خليط من المهاجرين الاسبان والايطاليين في النسبة الكبرى، ومن الالمان والفرنسيين والاوروبيين الشرقيين في نسبة اقلّ.

وحتى اليوم، لا يزال فريق الارجنتين مكوّناً في تسعين بالمئة منه من الايطاليين والاسبان (واعرفهم بل اميّزهم عن بعضهم بعضاً من خلال اسماء عائلاتهم المكتوبة على ظهر قمصانهم الجميلة). ثمة نكتة ارجنتينية تقول ان شابين ارجنتينيين ذهبا في رحلة سياحية الى ايطاليا. ففتحا هناك دليل الهاتف بحثاً عن اسمٍ. وعندما قرؤوا ما امامهم من اسماء، قال الواحد للآخر: «لكن ماذا يفعل كل اولئك الارجنتينيين هنا في ايطاليا؟»!! وعودة الى كرة القدم واللاعبين والمونديال، اعتدت كل اربع سنوات ان اقع في غرام احد لاعبي الفريق الارجنتيني وفي المرّة السابقة أُغرمت باللاعب الفائق الجاذبية والجميل باتيتوستا. هذه السنة لن اقول بمن أُغرمت كي لا اؤثر عليه الامر الذي قد يفقده صوابه ويتكاسل في اللعب. اريد ان تربح الارجنتين، وبعد المونديال سوف اخبره!

ليتنا نعيش اثني عشر شهراً في هكذا عيد، ليت الالعاب المونديالية تقام دائماً وبلا انقطاع، وذلك لننسى السياسة والحروب والموت، علماً بأن من قد يتمنّى ايضاً مونديالات متواصلة على غراري، ولكن لأسباب جداً مختلفة، هي الشركات المتعددة الجنسية التي وراء قناع الديمقراطية وقبول الآخر والحوار الحضاري التافه الذي اتعبونا به، يشنّون على العالم حرباً اقتصادية شرسة.

واشرس من ذلك، او اتفه من ذلك، هو «رغبة» احد رؤساء احدى الدول الاوروبية الغربية في ان يغلب احد الفرقاء الزنوج فريقاً اشقر كان يلعب معه! هذه العاطفة وهذا الكرم هما اللذان اشمئز منهما: فمن لا ينظر الى الآخر نظرة دونية، او نظرة شفقة في احسن الاحوال، لا يعامل هذا الآخر معاملة «مميزّة» انما يعامله كما يعامل الجميع. وفي اي حال، سياسات الدمقرطة المهذّبة هذه، ليست سوى كاذبة واعرف كم العرقية والوطنية تغليان في قلب كل واحد منا، وخصوصاً، وعلى الرغم من المظاهر، في قلب كل اوروبي وغربي عامة. ولمَ لا؟! انا لستُ ضد هذا انما ضدّ الزيف!

* شاعرة كاتبة من لبنان